دَلالةُ الصِّرَاطِ المُسْتَقيمِ في القُرآنِ الكريمِ

أ.م.د. ناجي حجلاوي
مؤسسة الزيتونة -الجمهورية التونسية

فحوى البحث

عد السيد الباحث مفهوم (الصراط المستقيم) الوارد ذكره في القرآن الكريم وفي مواضع كثيرة، ضمن المتشابه الذي مثل الفضاء الدلالي المفتوح على مصراعيه ضمن السيرورة الزمنية بحيث يحتمل عدداً غير محدود من التأويل التي لاينفي بعضها البعض ولا يخطئها لانها متأثرة بالضرورة بما يدركه مفسر في عصر قد يتفطن مفسر اخر الى امر اخر في عصر مغاير. وقد رأى الباحث ان المسلمين قد ذهبوا بعيداً في تناولهم هذا النص الالهي وهو امر في غاية الخطر في تشويه العقائد وتلوين المعاني القرآنية وقد نقل الباحث اراء علماء المسلمين في معنى الاية و ترك للقارئ المتقصي حرية الفهم والحكم على ان يكون للعقل وقابلية التحليل مكان واضح في هذا الحكم بعيداً عن الهوى والتعصب.

مدخل

لقد أنزل الله تعالى كتابه وغيّر صيغته من حالة تندّ عن الإدراك والوعي البشريّين إلى صيغة مدركة في قالب لغوي يستطيع العقل البشري تناوله فهما وتفسيرا وتأويلا وذلك معنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[سورة الزّخرف: ٣] والجعل هو التّغيير والصّيرورة من حال إلى حال. هذه العمليّة من الله تعالى إحسان إلى عباده لأنّه يسّر لهم كلامه لكي يدبّروه ويتذوّقوا معانيه غير المتناهية لأنها نابعة عن الخالق الّذي يتّصف بصفات الكمال غير المتناهي. ومن ثمّ ضمّنه المتشابه الممثّل للفضاء الدّلالي المفتوح على مصراعيه على السّيرورة الزّمنيّة بحيث يحتمل عددا غير محدود من الإمكانات التّأويليّة الّتي لا ينفي بعضها البعض ولا يخطّئها لأنّها متأثّرة بالضّرورة بمقام القول فما يدركه مفسّر في عصر قد يتفطّن مفسّر آخر إلى أمر آخر في عصر مغاير. وذلك كلّه بحسب المناخ الثّقافي والسّقف المعرفي المتاحين في عصر هذا أو ذاك.

إلاّ أنّ المسلمين في تناولهم لهذا النّص الإلهي قد ذهبوا بعيدا في التّحكّم بمعانيه أو قل فيما فهموه منه فقسّموا طبقات معانيه على أربع طبقات وانظر إلى ما أورده الطّبري في هذا المجال رواية عن ابن عبّاس: "التّفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يُعلم إلاّ ببيان رسول الله، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله"[1]. وإذ يوافقه في هذا الرّأي كثير من المفسّرين فهم بذلك يثيرون إشكالات عديدة منها إذا كان الأمر على هذه الشّاكلة فلماذا يُنزل الله جانبا من كلامه لا يفهمه إلاّ هو؟. وما هو القصد من جانب آخر لا يعلمه إلاّ الرّسول وقد أُمر بالتّبليغ؟. وأمّا الجانب الّذي لا يعلمه إلاّ العلماء فهو ضرب من الكهنوت الدّخيل على الثّقافة الإسلاميّة. وقد استغل هذا الأمر لإعلاء منزلة بعض الشّيوخ ليصبحوا

(١) الطّبري، جامع البيان، مج١، مقدّمة المؤلّف، ص٩٠ - ٩١..

أشبه بكهنة المعابد المحتكرين للمعنى القائمين بدور الوساطة بين الله وعياله. وهو أمر في غاية الخطر في تشويه العقائد وتلوين المعاني القرآنيّة الشّديدة الوضوح. وأمّا النّوع الرّابع فلم يبيّن القدامى حدوده ولا ضبطوا معانيه.

نخلص من ذلك إلى الإشارة إلى أنّ أزمة المسلمين قديما وحديثا تكمن في تحديد طبيعة علاقتهم بهذا الكتاب الإلهي فمنهم من يزيّن به المكتبة داخل المنزل، ومنهم من يتبرّك به ومنهم من يفهمه كما فهمه الأسلاف المفسّرون ومنهم من يهجره هجرا ومنهم من يتّخذ من حفظه وتلاوته عملا بدلا من أن يعمل بتعاليمه.

إنّ الجدير بالذّكر هو أنّ القدامى رأوا أنّ أحسن الطّرق التّفسيريّة هي تفسير القرآن بالقرآن والحال أنّ هذا الرّأي ظلّ مطلبا عزيز التّطبيق لأنّك بمجرّد التّقدّم في مطالعة تفسير الآيات الأولى تجد الأحاديث والمرويّات والآثار والأشعار أكثر من الاستشهاد بآيات أخرى تصبّ في الدّلالة نفسها.

وبغضّ النّظر عمّا تثيره هذه المرويّات من تشويش على المعنى فإنّ السّؤال المركزي في الوعي التّفسيري يظلّ منهجيّا بالأساس وعليه فإنّ كلّ ما يثيره التّراث من قضايا إنّما هو يطرح أسئلة في وقتنا الرّاهن أكثر ممّا يقدّم أجوبة لأنّ تحكيم الأحاديث في ضبط المعنى القرآني انجرّ عنه القول لدى البعض إنّ القرآن أحوج إلى السّنّة أكثر من حاجة السّنة إلى القرآن كما انجرّ عنه القول بأنّ السّنّة وحي ثان. وقد أصبح القول بأنّ السّنة شارحة للقرآن وموضحة له مدخلا خطيرا من مداخل تفسير النّص القرآني وفق رؤية المفسّر، بحيث تكون له كامل الصّلاحيّة في ربط ما شاء من الأخبار بما شاء من الآيات، مدّعيا أنّها شارحة لها وموضّحة، بمجرّد أن يرى بين الآية والخبر علاقة ما[٢]. وهو أمر يتعارض رأسا مع ما قصد إليه الرّسول ﷺ

(٢) انظر مصطفى بوهندي، التّأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطّليعة، ط١، لبنان ٢٠٠٤، ص١٠٥..

حين نهى عن كتابة كلامه: "لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[٣]. أضف إلى ذلك مدى صحّة ما يرويه القصّاصون وأهل المغازي وقد ذكروا أنّهم إذا استحسنوا قولا نسبوه إلى الرّسول عليه الصّلاة والسّلام. وقد أشار مصطفى السّباعي إلى الدّور الّذي اضطلع به (الرّوافض) في الكذب ووضع الأحاديث مستشهدا بما قاله مالك بن أنس فيهم: «لاتكلمهم ولاترو عنهم فإنهم يكذبون»، وأورد أنّ الشّيخ حماد بن سلمة حدّثه شيخ من (الرّوافض)، قال: «كنّا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئا جعلناه حديثا»[٤].

وأمّا الشّعر المستعان به لتوضيح معاني القرآن فآثاره السلبيّة كثيره جدّا منها أنّه رهين الرّؤية الشّعريّة الّتي تسمح بالتّرادف ولا ترادف في اللّغة لأنّ كلّ مفردة تحتوي على معنى ولو دقّ ولطف. ثمّ إنّه ينهض على المبالغات والزّيادة والنّقصان ولا مبالغة في القرآن ولا زيادة ولا نقصان وليس من اليسير الجمع بين موقف القرآن في سورة الشّعراء من الشّعراء وبين ما يُروى عن ابن عبّاس: "إِذَا سَأَلْتُمُونِي عَنْ غَرِيبِ القُرْآنِ فَالتَمِسُوهُ فِي الشِّعْرِ، فَإِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ العَرَبِ"[٥]. وكلّ ذلك وغيره في حاجة إلى مزيد النّظر والتّدقيق ونحن إذ نتناول مصطلح الصّراط المستقيم الوارد في القرآن الكريم فإنّنا نرغب في إزاحة الغبار ما استطعنا عمّا علق به من أفهام عبر التّاريخ ولعل ذلك يكون مثريا ومثيرا لنقاش يعود بالفائدة على المسلمين وكفى بذلك مطلبا ونوالا.

ينبع الاهتمام بفكرة الصراط المستقيم من كونها مسألة مركزية في الاعتقاد يكررها المسلم في كل جزء من أجزاء صلواته اليوميّة. وقد أُعيدت هذه العبارة في القرآن

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزّهد والرّقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ج١، ص١٣٦٦..

(٤) انظر مصطفى السباعي، السّنّة مكانتها في التّشريع الإسلامي، ص٩٦.

(٥) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، تحقيق هشام سمير البخاري، طبعة دار عالم الكتب، الرّياض، ٢٠٠٣، ص٢٤.

إحدى وعشرين مرّة بصيغها المتنوّعة بين التّنكير والتّعريف تقريرا لقيمة هذا المصطلح. والجدير بالملاحظة أنّ أغلب الدّارسين كالمتعبّدين يستعملون عبارة الصّراط المستقيم من دون تحديد مسبق ومتّفق عليه لدى العلماء حول ما يعنيه الصّراط. وقد تعلّقت بهذه الفكرة أفهام وتصوّرات متنوّعة إلى حد الاختلاف وشابتها شوائب عديدة جعلت من الصّراط جسرا هو أقرب ما يكون إلى الجسر المجسّد والمتعيّن. ولا غرو في ذلك إذلم يتخلّص العقل من الصّورة البدويّة والبدائيّة التّي أخرجها المتديّنون عبر الصّيرورة الزّمانيّة. ولا عجب مرّة أخرى حينئذ أن يُقدّم الصّراط على أفهام متنوّعة وصور مختلفة إذ هو لصيق بمصائر النّاس ومحدّد لمآلهم ولذلك نجد له صدى في أغلب الدّيانات. إنّ همّ المنظومات الإيمانيّة هو إضفاء المعنى على أدقّ جزئيّات الحياة إن في الدّنيا أو في العوالم الآتية. ولمّا كانت هذه العوالم غيبيّة فإنّ العقل الإنساني يجدّف فيها أحيانا بغير مجداف فيجنح إلى التّمثيل والتّخييل والتّجسيد.

ومازال العقل الفقهي في الثّقافة الإسلاميّة يفعل فعله في إجراء الأفهام على الآيات الّتي من طبيعتها التّعميم المقصود البادي في الإشاريّة والرّمزيّة ليُخرجها مخرجا مشهديّا وتصويريّا هو أقرب إلى التّرغيب والتّرهيب منه إلى تقرير الحقيقة الدّينيّة. وقد كان بإمكان هذا النّص الدّيني المتمثّل في الوحي أن يكون واضحا مدقّقا في الجزئيّات، ولكنّ ذلك فعل قاتل للمعنى منغلق على الذّات لا يسمح بالنّظر وإعادة النّظر وفق المجريات الّتي يقتضيها التّطوّر الاجتماعي والثّقافي وهو ما اصطلح عليه فقهيّا بالعرف الجاري. وفي هذا الفضاء من المعرفة المنفتحة على الصّيرورة الزّمانيّة فإنّ الرّسول قد أعرض على إنجاز تفسير جاهز للكتاب وهو على ذلك قدير بأنّ ذلك يتعارض رأسا مع مقتضيات ختم النّبوءة. إنّ ختم النّبوءة إعلان صريح على أنّ العقل البشري قد بلغ من القدرة مداها

على التّجريد والتّخلّص من ضروب التّجسيد[٦] والتّقليد. وعليه فإنّ ما يفهمه الإنسان العادي أو متوسّط الثّقافة ليس بالضّرورة ما يقتنع به صاحب العقل الثّاقب والنّظر الفاحص.

إنّ مفهوم الصّراط المستقيم يزداد قيمة في حياة الإنسان ووجوده من خلال ما تكشف عنه سورة الفاتحة من الطّلب المستمرّ سعيا للهداية إلى الصّراط المستقيم وعليه فإنّ ضرورة التّعرّف على معالم هذا الصّراط وما يتعلّق به من مقتضيات الحياة الإنسانيّة. ومن ثمّ نلفي بعدين أساسيّين: الأوّل نظري تفهّمي، والثّاني سلوكي عملي تمثّلا لهذه الاستقامة المغذّية للإنسانيّة وللقيم والأخلاق، إذ الاكتفاء بالمستوى النّظري، ولاسيّما في عوالم الثّقافة الدّينيّة، يبدو كطائر بجناح واحد.

ولقد ورد في لسان العرب أنّ اللّفظة تصحّ بالسّين وبالصّاد وبالزّاي، فترد سراطا وصراطا وزراطا وفي كلّ ذلك تعني الطّريق. والسّراط هو السّبيل الواضح والمنهاج البيّن. والصّراط لغة في السّراط، وقلبت السّين صادا بمفعول الجوار الصّوتي وبالصّاد لغة قريش الأوّلين التّي جاء بها الكتاب. وقيل للطّريق الواضح سراط لأنّه كأنّه يسترط المارّة لكثرة سلوكهم. وقد ذهب ثعلب إلى أنّ الصّراط يعني الموتَ أي على طريقهم[٧]. وقد ورد عند الزّمخشري أنّ الصّراط يُسمّى لقما لأنّه يلتقم المارّة كما يلتقم الآكل اللّقمة فتتوارى عن الأنظار ويُجمع على صُرُط ككتاب كُتُب وهو يؤنّث ويُذكّر كالطّريق[٨].

(٦) يقول محمد إقبال في هذا الصّدد: "إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها في إدراكها الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها" محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، ص١٤٩.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التّراث العربي، لبنان، د. ت، مج٧، مادّة سرط، ص٣١٣ - ٣١٤، ومادّة صرط، ص٣٤٠.

(٨) جار الله الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ج١، مكتبة مصر، دار سحنون للنّشر، تونس، د. ت، ص٢٠ - ٢١.

إنّ مقولة الصّراط المستقيم بما تضمّنته من قابليّة للتّقليب بحسب تعدّد المعاني جعلت المفسّرين يتحدّثون عن طريق أحيانا وعن جسر أحيانا أخرى هو أدقّ من حدّ السّيف أو الشّعرة يمتدّ فوق جهنّم ونسبوا للنّار كلاليب تنهش وتنغرس في جسد المارّ وأنّ كلّ كلّب يمثّل ذنبا من الّذنوب الّتي اُرتكبت في الحياة الدّنيا، علما بأنّ النّور البادي من أحد أصابع قدميْ المارّ على هذا الجسر يكون بحسب عمله في الدّنيا ولربّما خبا أحيانا وأضاء أحيانا أخرى. فبقدر صلاح هذا المارّ يكون ضياؤه من على هذا الجسر وكأنّ الميزان والحساب ليسا كافيَيْن لإقامة الجزاء حتّى يستبين مقدار الخير ومقدار الشّر من خلال هذه الإضاءة المنبعثة منه وهي عودة مرّة أخرى إلى التّجسيد.

لقد ورد في الصّحيحين ومسند أحمد ما يلي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ يَا رَسُولَ اللهَّ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: "هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللهَّ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا[٩]، فَيَأْتِيهِمْ اللهَّ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمْ اللهَّ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ وَبِهِ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهَّ. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهَا لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللهَّ فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ مِنْهُمْ

(٩) أو شَافِعُوهَا في مسند أحمد.

المُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ الْمُخَرْدَلُ[10] ثُمَّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلاَمَةِ آثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو اللهَ فَيَقُولُ لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ فَيَقُولُ لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ يَا رَبِّ قَرِّبْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ وَيْلَكَ ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو فَيَقُولُ لَعَلِّي: إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ تَسْأَلُنِي غَيْرَهُ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَيُعْطِي اللهَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ فَيُقَرِّبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ ثُمَّ يَقُولُ أَوَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ أَذِنَ لَهُ بِالدُّخُولِ فِيهَا فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ لَهُ تَمَنَّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَنَّى ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَنَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الأَمَانِيُّ فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً"[11]. وانظر إلى ما ورد

(١٠) أو المُجَازَى في مسند أحمد.

(١١) صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، طبعة جديدة، مكتبة الإيمان، مصر، ٢٠٠٣، كتاب الرّقاق، حديث رقم ٦٥٧٣، ص١٣٢٩-١٣٣٠. وصحيح مسلم بشرح النّووي، طبعة مرتّبة، المكتب الجامعي، مصر، د. ت، مج٢، ج ٣، حديث رقم ٢٩٩، ص ١٤ -١٥. ومسند أحمد، شرح أحمد محمّد شاكر، دار الحديث، ط١، ١٩٩٥، ج٧، حديث رقم ٤٣٧٧، ص ٤٣٢.

إذا اتّفقت الصّحاح الثّلاثة في منبع الخبر المتمثّل في أبي هريرة فإنّ سلسلة الأسانيد تختلف من صحيح إلى آخر.

ثني هذا الحديث من تفاصيل تحيل على المتخيّل الّذي كثُر في أكاذيب القصّاص وأصحاب المغازي والتّفاسير[١٢] ممّا يؤكّد ما ذهب إليه أحمد بن حنبل من أنّ ثلاثة كتب لا أُصول لها: "المغازي والملاحم والتّفسير". والقصد منه لا صحّة لمنطلقاتها، فقد سعى من له دراية بالأخبار والآثار من أهل الكتاب ولاسيّما الّذين أسلموا منهم إلى إفشاء ما عنّ لهم من تصوّر وتخيّل حول العوالم المحجوبة والمغيوبة، ولا أدلّ على ذلك من المحاورة مع الله وهي لم تخل من مساومة باردة إلى حدّ السّذاجة وكأنّ الله بدا غير ذي علم ولا دراية بحقائق الأمور.

وليس ذلك ببعيد عمّا رُوي عن إِسْحَاق بنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: "إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا[١٣]. وقد رُوي أنّ هذا الصّراط يتكوّن من سبعة قناطر: قنطرة التّوحيد فقنطرة الصّلاة فالصّوم فالزّكاة فالحجّ فالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ثمّ قنطرة المظالم، وهي قناطر في شكل حواجز يُختبر من خلالها المارّ في الحصيلة المتبقّاة من كلّ ركن من هذه الأركان الشّعائريّة والتّعبّديّة، وفي كلّ قنطرة إمّا إخفاق فسقوط في النّار وإمّا نجاة فمرور إلى القنطرة الموالية.

وبالالتفات إلى كتب التّفسير نلفي تعدّدا في مستويات الفهم للصّراط المستقيم منها ما ارتآه الزّمخشري من أنّه يفيد طريق الحقّ وهو ملّة الإسلام وبدله صراط الّذين أنعمت عليهم أي صراط

(١٢) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٢٢٧.

(١٣) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب قصاص المظالم، حديث رقم ٢٤٤٠، ص٥٠٤.

المسلمين على أبلغ وجه[١٤].

وقد يشمل معنى الصّراط المستقيم أكثر من معنى كتمثّل هداية الله وتوفيقه إلى اعتباره مجسّدا في شخوص بشريّة تمثّل أسوة حسنة لبقيّة المؤمنين. فالطّبري، على سبيل المثال، يقول في معرض تفسيره للآية "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ": أجمعت الأمّة من أهل التّأويل جميعا على أنّ الصّراط المستقيم، هو الطّريق المستقيم: هو الطّريق الواضح الّذي لا اعوجاج فيه. والّذي هو أولى بتأويل الآية عنده أن يكون معنيّا به: وفّقنا للثّبات على ما ارتضيته، ووفّقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل. وفي سرده لتفاسير القرآن أورد الطّبري ما رُوي عن عليّ بن أبي طالب عن النّبي أنّه قال وذكر القرآن فقال: هو الصّراط المستقيم. وعن ابن عبّاس أن الصّراط المستقيم هو الإسلام وفي رواية أخرى الطّريق. وعن أبي العالية قال هو رسول الله وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر[١٥].

ولقد أشار محمّد عجينة إلى أنّ الأساطير "قد تهاجر أحيانا إلى فضاءات مكتوبة مختلفة منها كتب التّفسير وكتب قصص الأنبياء فتكون منطلقا لبناء المعنى وتوضيحه، وقد يكون ذلك التّحوير في أحد شكلين اثنين: في شكل سردي أو في شكل حجاج فتقوم الأسطورة بـ "مسرحة" العقيدة، أحيانا وتجسيم قيم الخير والشّر وغيرها في شكل محسوس يقربها من جمهورها من "العامّة" أحيانا أخرى، وهذا بالذّات ما فعله المفسّرون والقصّاص أحيانا مع بعض الأساطير، فساعدوا بذلك على إقحام التّراث الأسطوري في التّصوّرات والمعتقدات داخل مجتمع من المجتمعات وساهموا في إغناء تلك

(١٤) جار الله الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ج١، مكتبة مصر، دار سحنون للنّشر، تونس، د. ت، ص٢٠-٢١.

(١٥) انظر الطّبري، جامع البيان، تحقيق أحمد عبد الرزاق البكري ومحمّد عادل محمّد ومحمّد عبد اللّطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، دار السّلام، ط. ٢، مصر، ٢٠٠٧، مج ١، ص١٥٠ -١٥٣.

الحكايات بطبقات رمزيّة جديدة، وهو ما يمكن أن نتبيّنه على سبيل المثال في "قصّة بلوقيا"، ضمن قصص الأنبياء للثّعالبي، وضمن ألف ليلة وليلة في "قصّة حاسب كريم الدّين" وهي حكاية يتنازعها فضاءان اثنان: فضاء المقدّس من جهة وفضاء الدّنيوي من جهة أخرى. وهي قصّة تمسرح العقيدة مستعينة بأساطير عديدة منها أسطورة جلجامش وأسطورة الخليقة وغيرها"(١٦).

وفي تفسيره للآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[سورة مريم: ٧١] يذكر الطّبري الأخبار المرويّة عن الرّسول فيقول: "يوضع الصّراط بين ظهري جهنّم عليه حسك كحسك السّعدان ثمّ يستجيز النّاس، فناج مسلّم ومجروح به، ثمّ ناج ومحتبس ومكدّس فيها". ولا يجد الطّبري مناصا غير الاستشهاد بما أُثر عن الرّسول من الأخبار والأحاديث فيسترسل في سردها مستمدّا منها صدقيّة ما يذهب إليه من آراء تفسيريّة، يقول: عن أبي سعيد الخدري، أنّ الرّسول قال: "يؤتى بالجسر -يعني يوم القيامة -فيجعل بين ظهري جهنّم. قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟. قال: مدحضة مزلّة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد، يقال لها السّعدان، يمرّ عليها المؤمنون كالطّرف والبرق والرّيح، وكأجاويد الخيل والرّكاب، فناج مسلّم ومخدوش مسلّم ومكدوس في جهنّم، ثم يمرّ آخر يسحب سحبا، فما أنتم بأشدّ مناشدة لي في الحقّ، قد تبيّن لكم من المؤمنين يومئذ للجبّار تبارك وتعالى إذا رأوهم قد نجوا وبقي إخوانهم"(١٧).

(١٦) محمّد عجينة، الأساطير وتحوّلاتها، الأساطير والأدب، مقال ضمن أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد المجيد الشّرفي، وحدة البحث: في قراءة الخطاب الدّيني، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة تونس، ط١، ٢٠١٤، ص١١٧.

(١٧) انظر الطّبري، جامع البيان، تحقيق أحمد عبد الرّزّاق البكري ومحمّد عادل محمّد ومحمّد عبد اللّطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، مج ٧، دار السّلام، ط. ٢، مصر، ٢٠٠٧، ص٥٥٢٩.

وفي معرض تفسيره للآية ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢] يفسّر الطّبري الصّراط المستقيم بالتوجّه شطر المسجد الحرام لقبلة إبراهيم، وقد أضلّ الله اليهود والمنافقين وجماعة الشّرك بالله[١٨].

وفي الآية ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣] يقول الطّبري: "فكانت هداية الله – جلّ ثناؤه –الّذين آمنوا بمحمّد وبما جاء به لمّا اختلف هؤلاء الأحزاب من بني إسرائيل الّذين أوتوا الكتاب فيه من الحقّ بإذنه أن وفّقهم لإصابة ما كان عليه الحقّ من كان قبل المختلفين الّذين وصف الله صفتهم في هذه الآية إذ كانوا أمّة واحدة. وذلك هو دين إبراهيم الحنيف المسلم خليل الرّحمان، فصاروا بذلك أمّة وسطا، كما وصفهم به ربّهم ليكونوا شهداء على النّاس[١٩].

وقد جاء على لسان عيسى في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٥١] أنّ الصّراط المستقيم هو الّذي قد حمل قومه عليه وجاءهم به[٢٠]. والصّراط هو الطّريق الواضح والمحجّة المستقيمة غير المعوجّة من اتّبعه يهدى إلى رضا الله وإلى النّجاة من عذاب الله والفوز بجنّته[٢١]. وهو الطّريق الّذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الله القويم الّذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وهو الإسلام الّذي يهديهم لإصابة فضل الله الّذي تفضّل به على أوليائه ويسدّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم[٢٢]، وهذا الفهم يستند

(١٨) تفسير الطّبري، جامع البيان، مج١، ص٧٤٤.

(١٩) تفسير الطّبري، جامع البيان، مج٢، ص١١٣٦.

(٢٠) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٣، ص١٨٠٠.

(٢١) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٣، ص ١٨٩٩.

(٢٢) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٣، ص٢٤٠٥ و مج٤، ص٢٦٥٢ وص ٢٧٩٣ وص٣٢٥٣ وص٣٣٤٢ وص ٣٤٠١ وص٣٤٢٦ ومج٧، ص ٥٨١٧، وص٥٩٤٧، وص٦٠٧٦، ومج٨، ص٦٧٢٠، وص٦٨١٤، وص٦٨٥٢.

إلى منطوق الآية ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾[سورة الأعراف: ٨٦] وإن تعلّق الخطاب فيها بقوم شعيب(٢٣) حيث تعلّق المعنى بالبعد المادّي في الصّراط. وأمّا في تفسيره للآية: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦] فيورد الطّبري رواية سبرة بن الفاكه أن سمع النّبي يقول: "إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقة، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟. فعصاه فأسلم، ثمّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنّما مثل المهاجر كالفرس في الطّول؟. فعصاه وهاجر. ثمّ قعد بطريق الجهاد، وهو جهد النّفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟. فعصاه وجاهد. "وقد أورد الطّبري عن عون بن عبد الله في تفسير الآية قال: "طريق مكّة". ولم يكتف الطّبري بإيراد رواية عون وإنّما علّق عليها و نقدها معتبرا أنّ الصّراط في روايته وإن كان من صراط الله المستقيم فإنّه ليس الصّراط كلّه، وإنّما أخبر عدوّ الله أنّه يقعد لهم صراط الله المستقيم ولم يخصّص منه شيئا دون شيء معتبرا أنّ ذلك فهم أشبه بظاهر التّنزيل وأولى بالتّأويل، لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصّد عن كلّ ما كان لهم قربة إلى الله، معلنا بذلك أنّه يلتقي بآراء أهل التّأويل، كمجاهد وابن عبّاس وقتادة، الّذين ذهبوا إلى أنّ الصّراط هو سبيل الحقّ(٢٤).

وأمّا بالنّسبة إلى الطّباطبائي في تفسيره الميزان فإنّه يتوسّع في التّأويل ليطال عليّ بن أبي طالب ليضحى مفهوم الصراط المستقيم متعلقا بما يذكر من اننا نقرأ في كل يوم عشر مرات على الأقل في سورة الفاتحة اهدنا

(٢٣) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٥، ص٣٥٧٠.

(٢٤) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٥، ص٣٤٥٦ -٣٤٥٧ ومج ٦، ص٤٣٥٩ وص٤٨٩٦ وص٥٠٦٨. ومج٧، ص٥٤٩٨ وص٥٦٦٥، وص٥٩٤٨، ومج٨، ص٦٨٥٥، وص٦٨٨٠ وص٦٩٢٨، وص ٦٩٨٥، ومج٩، ص٧٢٦٠، وص٧٢٩٤، وص٧٣١٢، وص٧٤٧١، ومج١٠، ص٨١٢٥.

الصراط المستقيم، لكن هلاّ تساءلنا ما هو الصراط المستقيم؟. أعتقد أننا لو تساءلنا وعرفنا المقصود لوجدنا أنفسنا خاشعين في الصلاة أكثر و أكثر، في الحقيقة أن للصراط المستقيم معاني كثيرة لكنها كلها نور على نور وكلها في نور واحد، فقد ذكر العلامة الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه في تفسير الميزان وفي الفقيه والعياشي عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عوفي المعاني عن الصادق عليه السلام قال: هي الطريق إلى معرفة الله و هما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه في الآخرة فتردى في نار جهنموفي المعاني ايضا عن السجاد عليه السلام قال: ليس بين الله وبين حجته حجاب، ولا لله دون حجته ستر، نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عتبة علمه ونحن تراجمة وحيه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سرهوعن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثوري عن السدي عن أسباط و مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال: قولوا معاشر العباد ارشدنا الى حب محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته[٢٥] عليهم السلام. وفي هذا المجال يُعلّق أحمد مصطفى يعقوب بأنّ الاختلاف دبّ بين المسلمين فيما يتعلّق بالإمامة، وإذ كان الحقّ مع عليّ فإنّ الصّراط المستقيم هو ما سلكه عليّ فهو ما الحقّ والحقّ معه وأنّ ولاية عليّ هي الصّراط المستقيم[٢٦].

وقد ذهب ابن قيّم الجوزيّة إلى أنّ الله على صراط مستقيم[٢٧] ومعناه أنّ

(٢٥) محمّد حسين الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تحقيق حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطلبوعات، ط١، لبنان، ١٩٩٧، ج١، ص٣٢-٤٥.

(٢٦) أحمد مصطفى يعقوب، ما معنى الصّراط المستقيم، alkolainy. blogspot. com /٢٠١٥ /٠٦ blog -post٧٤.html.

(٢٧) تنصّ الآية ٥٦ من سورة هود ١١ على ما يلي: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن

أقواله كلّها صدق ورشد وعدل وهدى وأفعاله كلّها مصالح وحكم ورحمة وخير. والشّرّ لا يدخل في أقوال من اتّبع الصّراط المستقيم وأفعاله، وأنّ الّذين اتّبعوا الصّراط المستقيم يتّصفون بهذه الخصلة ويتحلّون بهذه الصّفات[٢٨].

وليس هذا التّصوّر العليق بالصّراط المستقيم مقتصرا على التّفكير السّنّي وإنّما هو شديد الشّبه بما يرتئيه أهل التّشيّع.

وفي هذا الصّدد لابدّ من التّنويه أوّلاً بحقيقة تتمثّل في أنّ الصّراط المستقيم صراطان: صراط في الدّنيا، وصراط في الآخرة تبعا لما أشار إليه الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن هذين الصّراطين: «.. فأمّا الصّراط المستقيم في الدنيا فهو ماقَصُر عن الغلوّ، وارتفع عن التّقصير، واستقام فلم يَعدِل إلى شيء من الباطل. وأمّا الطّريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة... الّذي هو مستقيم». صراط الإنسان في الدّنيا سوف يتجلّى يوم القيامة جسراً ممدوداً على متن جهنّم. لابدّ للوصول إلى نعيم الجِنان من المرور عليه. ومعنى هذا: أنّ الصّراط الأُخرويّ هو امتداد لصراط الإنسان في حياته الأرضيّة، بل هو نفسه قد تجسّد ظاهراً للعيان في عالم الانكشاف الأخرويّ المبين. وهو جسر تصفه الرّوايات بأنّه مظلم، يسعى النّاس عليه على قدر أنوارهم. ويصوّر حديث للإمام الصّادق عليه السلام يتمثّل في أنّ مسير النّاس آنذاك على الصّراط: «هو أدقّ من الشَّعرة، وأحدّ من السّيف فمنهم مَن يمرّ عليه مثلَ البرق. ومنهم مَن يمرّ عليه مثلَ عَدْو الفَرَس. ومنهم من يمرّ عليه ماشياً. ومنهم من يمرّ عليه حَبْواً. ومنهم من يمرّ عليه متعلّقاً. فتأخذ النّار منه شيئاً، وتترك منه شيئاً». وهذا المرور مَنوط، سرعةً وبُطءً، بقدر نور المارّين، وتتفاوت سرعة المشي بتفاوت نور اليقين. وما من شكّ أنّ التّمسّك بالحقّ

﴿دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(٢٨) ابن القيم الجوزيّة، مدار ج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، دار الكتب العلمية، ط١، لبنان، د. ت، ص٣١-٣٢.

والالتزام بالموقف التّوحيديّ الرّاسخ بما يتطلّب من البراءة والرّفض لكلّ مُطاع من دون الله، أفكاراً أم أشخاصاً أم أعمالاً إنّما يشبه المشي في طريق ضيّق شديد الضِّيق، حادّ بارز الحدّة.. كأنّما هو نصلة سيف. وفي مناجاة النبيّ موسى عليه السلام: إلهي، ماجزاء مَن تلا حكمتك سرّاً وجَهراً؟. قال: ياموسى، يمرّ على الصّراط كالبرق[٢٩].

إنّ المتأمّل في الموروث الدّيني لدى الشّعوب القديمة يُلفي قصصا يطالع في ثناياها أفكارا متعلّقة بما يُعرف بالصّراط المستقيم وهو ما يُدعّم الرّأي القائل: إنّ فكرة الصّراط ليست تصوّرا خاصّا بالدّيانة الإسلاميّة أو اليهوديّة أو المسيحيّة وإنّما هو تصوّر ضارب في القِدَم فحسب الزّرادشتيّة پل چينود CinvatPeretum-chinvat bridge الصراط (جسر) جهنم في كتاب افستا الزرادشتي يُمثّل الجسر فاصلا بين عالم الأحياء و عالم الأموات. وعبره يمرّ الجميع عند الوفاة. فإذا كان الشخص من الأشرار سيضيق عليه هذا الجسر ويخرج شيطان ليسحب روحه إلى مكان العقاب الأبدي وإذا كان الشّخص من الأخيار سيتّسع الجسر أمامه بما فيه الكفاية ليعبر هذا الشّخص بكلّ سلام، وحسب الدّيانة الزّرادشتيّة فإنّ الصّالح من النّاس سيخلّد في الجنّة إلى جانب النّبيّ زرادشت في حين أنّ الشّرّير سيخلّد في النّار إلى جانب الشّياطين[٣٠].

وأمّا في المسيحيّة فنلفي قول المسيح المتعلّق بنيل الجزاء إن خيرا أو شرّا إذ يقول: "تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ

(٢٩) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لـدرر أخبـار الأئمـة الأطـهـار، تحقيق مؤسّسة إحياء الكتب الإسلاميّة، إيران، الكتاب الخامس، قصص الأنبياء، القسم الأوّل، ص٥٢٠.

(٣٠) إلياس ديلمي، الصّراط حقيقة أم خرافة، مقال منشور في المجلة الالكترونية الحوار التمدّن، عدد ٤٧٧٩، بتاريخ ١٦/ ٠٤/ ٢٠١٥. http:// www. ahewar. org/ debat/ show. art. asp? aid =٤٦٤٠٢٦

فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَة"[٣١].

وبعيدا عن التّصوّرات الّتي هي من إنتاج المتديّنين بمقتضى محاورة النّصّ وتفسيره وفق أرضيّة المفسّر المعرفيّة والثّقافيّة فإنّ العودة إلى القرآن الكريم تفضي إلى اعتبار أنّ الصّراط المستقيم يتمثّل في الفرقان وهي عبارة عن وصايا عشر نزلت على موسى ثمّ محمّد وهو عبارة عن جملة القيم المشكّلة للمحرّمات في قوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١ -١٥٣].

وتبعا للقيل القرآني الوارد في هذه الآيات يتجلّى بما لا يدعو إلى الشّكّ أمام الدّارس أنّ القرآن قد أمدّ قارئه بمفاتيح الولوج إلى عوالمه فهما وتفسيرا وتأويلا وهذه المفاتيح هي ما يسمّيه بتفصيل الكتاب. فالآيات صريحة العبارة مفصّلة المعنى المراد من الصّراط المستقيم. إنّه يتمثّل في مجموعة قيم إنسانيّة لا يختلف في مشروعيّتها اثنان على اختلاف المذاهب والاتّجاهات لأنّها لصيقة بالفطرة والفطرة ثابتة لا تتبدّل ولا تتحوّل. فليس من المعقول أن يُستفتى شعب من الشّعوب أو أن يمرّر إلى التّصويت اقتراح لإقرار التّوحيد أو مشروعيّة طاعة الوالدين أو قتل النّفس البريئة أو إرساء العدل في الأرض بين النّاس. إنّ رأس هذه القيم المُشار إليها هي

(٣١) إنجيل يوحنّا، الإصحاح٥: ٢٨ -٣٠.

فكرة التّوحيد الإلهي الّذي يدلّ الكون موضوعيّا على أنّه صناعة دقيقة تشهد بربوبيّة الإله الحكيم القادر وأنّ الإحسان إلى الوالديْن اعتراف لهما بالفضل الّذي يتمثّل في سبب الإيجاد إلى جانب التّربية والرّعاية وعدم القتل العمد وتجنّب الفواحش الظّاهرة والباطنة وأن لا يتفاقم الجشع ليتسبّب في قتل الأبناء أو الاستيلاء على أموال اليتامى أو التّضحية بالإحسان والقسط الواردين في الميزان. وكلّ ذلك في مصاف التّكليف بما تتّسع لها الطّاقة البشريّة ثمّ الصّدق في القول ولاسيّما في أداء الشّهادة ولو كان ذلك ضدّ أهل القربى إذا كان القريب ظالما ومن القيم الخالدة أيضا الوفاء بعهد الله، وتجنب نكاح المحرمات كالأمّ والأخت والبنت وأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الدّم السّائل وكذلك أكل الرّبا وارتكاب الإثم والبغي بغير الحقّ وأن يقول الإنسان على الله ما لا يعلم. ولا أوضح ولا أدلّ على أنّ هذه القيم هي المشكّلة لفكرة الصّراط المستقيم من تعقيب الله عزّ وجلّ عليها بقوله ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ وقد تنبّه الزّمخشري في معرض تفسيره لهذه الآية أنّ قول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ معطوف على أن لا تشركوا باعتبار أنّ أنْ ناصبة للفعل حتّى يكون المعنى في أُتل عليكم نفيا للإشراك واتل عليكم أنّ هذا صراطي مستقيم، فالصّراط المستقيم علّة للاتّباع بتقدير اللاّم كقوله تعالى﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ ومعناه لأنّ صراطي مستقيم فاتّبعوه فأن مفسّرة لفعل التّلاوة والأوامر والنّواهي تقدّم عنها فعل التّحريم فعُلِم أنّ التّحريم عائد على الأضداد المتمثّلة في الإشراك وعقوق الوالديْن ونكث عهد الله[٣٢].

وقد اهتدى محمّد شحرور إلى هذه المعاني وأحسن تفسيرها في كتابه

(٣٢) جار الله الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج٢، مكتبة مصر، دار سحنون للنّشر، تونس، د. ت، ص ١٣٥.

"الكتاب والقرآن"(٣٣).

إنشغل الإنسان بمصيره وانشدّ بفكره إلى عالم ما بعد الموت فانتهى إلى إقامة تصوّرات للحساب والعقاب والثّواب وللجنّة والنّار وذلك بحسب المنطلقات المختلفة إن كانت تمثّلات وتخييلات أو عقائد وردت في الكتب المقدّسة. ولم تكن الثّقافة الإسلاميّة بدعا من الثّقافات الأخرى، إذ اهتمّت بعالم الغيب اهتمامها بعلم الشّهادة أو أكثر انطلاقا من قياس الغائب على الشّاهد واستنطاقا للآيات والأحاديث النّبويّة العليقة بالمعاد وقضاياه. وإذ نشير إلى أنّها مجموع قضايا ذات صلة مباشرة بعالم الغيب فإنّ الرّسول قد صرّح في أكثر من مرّة أنّه إنسان لا يعلم الغيب وإنّما هو مجرّد مبلغ لوحي يتنزّل عليه. وقد كان القرآن شديد الوضوح والصّرامة في هذا الأمر إذ لا يعلم الغيب إلاّ الله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[سورة الإسراء: ٩٣].

ومع هذا فإنّ اللافت هو كثرة الأحاديث المنسوبة إلى الرّسول والّتي تدور حول تفاصيل الحساب والميزان والحشر ومن بين هذه التّفاصيل ما ذُكر عن الصّراط وقد رسم على أنّه جسر فلم يجانب كثيرا مما كان عليه في ثقافات سابقة منها الزّرادشتيّة واليهوديّة والمسيحيّة ممّا يدلّ على أنّ البنية الذّهنيّة الدّينيّة على تشابه كبير قد يصل أحيانا إلى حد التّماثل.

إنّ المتأمّل في جلّ التّفاسير والكتب الّتي تنظّر للفعل التّفسيري تؤكّد أنّ أفضل طريقة لتفسير القرآن إنّما تكون بالقرآن والّذي يعييه هذا الاتّجاه فليلتمس توضيح الغامض من النّص القرآني في الأحاديث وفي السّنّة إلاّ أنّ هذا المطلب ظلّ كلاما نظريّا إذ يجد المطالع لكتب التّفسير استعانة منذ الوهلة الأولى بالدّلالة اللّغويّة أوّلا ثمّ بما قيل حول الآية من أحاديث أو آثار للصّحابة أو التّابعين ولا سيما ما تعلّق

(٣٣) انظر محمد شحرور، الكتاب والقرآن، ص٤٩١ وما بعدها (الفرقان أو الوصايا العشر).

بأسباب النّزول من مرويات وأخبار. وهكذا تكشف طريقة التّفسير التّقليديّة بقصد أو بغير قصد عن عدم كفاية الآيات في بيان دلالة الآيات الأخرى وهي إساءة بادية في عدم اعتبار النّصّ القرآني بناء متكامل الأجزاء. وقد زاد هذا التّصوّر عمقا بعد أن ارتفع الشّافعي بالسنّة إلى مستوى الوحي المضاهي للوحي القرآني في المنزلة، حتّى قيل إنّ القرآن به حاجة إلى السّنّة أكثر من احتياج السّنة للقرآن. ومن ثمّ فوّت الوعي الدّيني على نفسه أبعادا ودلالات في غاية الأهميّة. ولا غرو في ذلك فالقدامى تخبطوا في اعتبار أنّ آيات المصحف محكمة كلّها مرّة أو هي متشابهة مرّة أخرى أو هي مزيج بين هذا وذاك. ولم يتفطّنوا إلى نوع الآخر من الخطاب وهو تفصيل الكتاب الّذي يحيل على توضيح الغامض من الآيات أو الّتي تبدو كذلك، فأضحى بذلك مفتاح البيان كامنا داخل النّسيج النّصّي المشكل للعوالم الدّلاليّة الّتي يرسمها الخطاب القرآني.

وقد تصدّت هذه المقالة إلى أنموذج مفهومين من المفاهيم القرآنيّة المهمّة الّتي أبان عنها القرآن في مواضع كثيرة وإذ لم ينتبه المفسّرون إليها فقد انساقوا وراء معاني جانبيّة ولا سيما إذا جاروا الأخبار والآثار وهي في الغالب حجاب يخفي على الأعين عين الصّواب.

المصادر والمراجع

- ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، دار الكتب العلمية، ط١، لبنان، د.ت.
- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التّراث العربي، لبنان، د. ت.
- أحمد بن حنبل، مسند أحمد، شرح أحمد محمّد شاكر، دار الحديث، ط١، ١٩٩٥.
- جار الله الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ج٢، مكتبة مصر، دار سحنون للنّشر، تونس، د. ت.
- صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، طبعة جديدة،

مكتبة الإيمان، مصر، ٢٠٠٣.

- صحيح مسلم بشرح النّووي، طبعة مرتّبة، المكتب الجامعي، مصر، د.ت.
- الطّبري، جامع البيان، تحقيق أحمد عبد الرّزّاق البكري ومحمّد عادل محمّد ومحمّد عبد اللّطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، دار السّلام، ط٢، مصر، ٢٠٠٧.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، تحقيق هشام سمير البخاري، طبعة دار عالم الكتب، الرّياض، ٢٠٠٣.
- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق مؤسّسة إحياء الكتب الإسلاميّة، إيران.

المراجع

- أحمد مصطفى يعقوب، ما معنى الصّراط المستقيم، alkolainy. blogspot. com.
- بوهندي مصطفى، التّأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطّليعة، ط١، لبنان ٢٠٠٤.
- السباعي مصطفى، السّنّة مكانتها في التّشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٢، دمشق.
- شحرور محمد، الكتاب و القرآن.
- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦.
- محمّد حسين الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تحقيق حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، لبنان، ١٩٩٧.
- محمّد عجينة، الأساطير وتحوّلاتها، الأساطير والأدب، مقال ضمن أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد المجيد الشّرفي، وحدة البحث: في قراءة الخطاب الدّيني، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة تونس، ط١، ٢٠١٤.